حبكتا الانتصار والانكسار في رواية النهضة العراقية

اسم الباحث الأول: م.م كاظم حسن عسكر

اسم الباحث الثاني: أ.د عبد العظيم رهيف السلطاني

جامعة بابل- كلية التربية للعلوم الإنسانية- قسم اللغة العربية

الإيميل: hum249.kadhum.hasan@student .uobabylon.edu.iq

ملخص: اهتمت الدراسة بالحبكة من خلال تأمل صلتها بأيديولوجيا المؤلف من جهة وأيديولوجيا الحقبة من جهة أخرى، وكيف تسهم في تمثيل الأمة، وقد توصلت الدراسة إلى وجود صلة وثيقة بين هيكل الحبكة والتمثيل الأيديولوجي للأمة لدى روائيّ حقبة النهضة في العراق. فلا تبتعد الرواية عن التمثيل الأيديولوجي للأمة القائم على الخطاب الإصلاحي.

الكلمات المفاتيح: حبكة الانتصار. حبكة الانكسار. النهضة. الأمة

The Plots of Victory and Defeat in Iraqi Renaissance Novels This study examines plot by considering its connection to the author's ideology on the one hand, and the ideology of the era on the other, and how it contributes to representing the nation. The study concludes that there is a close link between plot structure and the ideological representation of the nation in the works of novelists of the Iraqi Renaissance era.

Keywords: The Plot of Victory. The Plot of Defeat. Renaissance. Nation.

مدخل:

اهتم النقاد والفلاسفة بشكل مبكر بالحبكة منذ أرسطو حين عدها "أعظم شيء له أهمية في التراجيديا[i]". فالحبكة عنده هو ما له بداية، ووسط، ونهاية[ii]. وهي ما يجعل الفعل منظمًا وذا معنى في سياقه. فالحبكة بوصفها كلمة "مثقلة بالمعنى؛ لأنها تنطوي على الفعل بأجمعه[iii]". ولكن مع العصر الحديث عزف النقد عن الاهتمام بالحبكة. كما راح الروائيون يميلون إلى حبكات غير تقليدية، وهو ما أربك النقد وجعل سؤال الحبكة نقديًا في حيرة دائمة. ويعود العزوف عن الحبكة إلى كتابات الشكلانية ثم البنيوية، التي كانت تنظر للخطابات السردية عبر النظام المكوّن لها[iv]، لا نظام التحبيك والفاعل السببي. حيث نظرت السرديات البنيوية للحبكة بوصفها ضربًا من السردية الكبرى المهيمنة على نظم التفكير، وهو ما سعت له البنيوية وما بعدها، عبر تنحيتها وإحلال النظام اللغوي محلها، وعوض أن يستمد المعنى من تسلسل الأحداث وترابطها، راحت البنيوية تبرز أهمية العلاقات الداخلية في التحكم بالمعنى. ويعود الاهتمام بالحبكة في هذه الدراسة إلى محوريتها في تشكل الخطاب الروائي، إذ تتصل بالبنية الكبرى للرواية، فهي تبدأ من تشكل الأحداث ثم تعقدها حتى نهايتها، فلا يمكن للشخصيات ولا الأمكنة ولا للإحداث أن تفهم من دون دخولها في حبكة ما، تنظمها وتمنحها منطقها الخاص[v]، فهي الرابط السببي الذي يجمع كل ذلك. ويشير بيتر بروكس في كتابه (قراءة من أجل الحبكة: التصميم والقصدية في السرد) إلى أن "الحبكة هي، أولاً وقبل كل شيء، ثابت في جميع السرد المكتوب والشفوي، إذ إن السرد من دون حبكة دنيا على الأقل سيفقد معناه، فهي إذن مبدأ الترابط والقصد الذي لا يمكننا الاستغناء عنه في التحرك عبر العناصر المنفصلة[vi]"، وما يؤكد أهمية الحبكة في الرواية العراقية التلازم الذي شهده القارئ منذ وقت مبكر بين نشأة الرواية ونشأة الدولة وكذلك نشأة الأمّة، كل تلك النشآت يظهر حاجة استثنائية إلى أهمية تحبيك المجتمع والدولة وسؤال الأمّة في سياق ما بعد الحرب العالمية الأولى. وقد كان ولادة الرواية العراقية في بداية القرن العشرين علامة على ميلاد السؤال العلماني للأمّة، وأعني بالعلماني الذي يستند إلى الأسباب في بناء الحبكة مبتعدًا عن حبكة القدر التي بنيت عليها المحكيات الشفاهية، وهذا التحول في شكل السرد وفي بناء الحبكة وكذلك في السؤال الاجتماعي كان نتاج فاعلين عربيّ وغربي.

لا تتصل الحبكات بالأبعاد الفنية فحسب، بل هي تتصل بالأبعاد الثقافية والأيديولوجية للنص، مثلما يسهم السياق في تشكيل الحبكة بشكل رئيس، فنجاح البطل أو فشله، وانكساره أو انتصاره تسهم فيه بشكل فاعل أيدولوجيا المؤلف أولًا وأيديولوجيا الحقبة الروائية، التي تخضع للمؤثرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وبالنتيجة هنالك ربط بين ما هو فني وما هو ثقافي، وليس مصادفة أن ينكسر أبطال حقبة معينة مثلما ينتصر أبطال حقبة أخرى، وأريد بها أبطال الروايات العراقية خصوصًا، فـ"الحبكات الروائية تأخذ في الغالب شكلًا تعاقديًا فهي تحكي المسرات والأحزان، الانتصارات والإخفاقات، وتتحدث عن مواثيق تتأسس وأخرى تنهار وتتحطم[vii]" أي أنها تتصل بمصائر

الشخصيات ومآلات السياسة، وتحولات الحقب الثقافية. فهي حبكات أيديولوجية مثلما حبكات فنية. ويجد القارئ في حقبة النهضة جملة من الروائيين، لعل أبرزهم محمود أحمد السيد وذو النون أيوب وكاظم مكي وعبد الحق فاضل، وأن موقفهم الناقد للسلطة والثقافة يقف خلفه الفكر اليساري الذي يصل إلى الانتصار عبر انكسارات المثقف، وليس عبر الوعي الزائف والانتصار الثقافي، ولعلنا نقف أمام تقابل ملفت وأزلي هو مثقف السلطة المتفائل الذي يبني حبكة الانتصار، ومثقف غير منتمٍ متشائمٍ وناقدٍ لقيم المجتمع والسلطة، وينتهي في مواجهة تلك القيم إلى الانكسار.

لم تكن "الهُوية بِمَعزَلٍ عَن عَمَلِيَّةِ التَّحبيكِ[...] فثمة جماعات لا تتمثل وجودها التاريخي الخاص إلَّا مِن خِلال سَردِها الخاص أو تحبيكها الخاص لتاريخها الجماعي، وهذا التحبيك هو - في المقابل - ما يدعم هويتها، وهو ما يُكَوّن ((الهُوية السَّردِيَّةَ)) بِحَسَبِ تَعبيرِ بُول ريكور الذي يذهب إلى القول بأن السرد يُكوّن الهُوية، ويُعيد صياغتها بالطريقة ذاتها التي يقوم فيها ((التحبيك)) بتشكيل التاريخ وإعادة صياغته.[viii]" لذا تتصل حبكتا الانكسار والانتصار بالروايات التي تتبنى أطروحة روائية أو تأخذ منحى أيديولوجيًا يتبناه البطل أو شخصية رئيسة، وتتشكل تلك الأطروحة عبر بنية صراع بين نمطين من التفكير، وكل نمط يرمي إلى هدم النمط الآخر، ويمكن تلمس الانكسار في انهيار الدعوات التي يتبناها البطل، وفقدان مركزه الاجتماعي، كذلك في استسلامه إزاء القوى التي تواجهه، في حين يتمثل الانتصار بالوعي الأيديولوجي لدى الشخصيات، حيث تغلب عليها الأنا المتفائلة، ويتمثل الانتصار في الرؤية الكلية التي تحكم المؤلف الضمني، وهي محكومة بالأيديولوجيا التي توجهه، سواء أكانت قومية أم اشتراكية أم غيرهما، وتلك الأيديولوجيا تبني تصورًا متفائلًا عن العالم، وتلك الرؤية المتفائلة هي ما يحكم النهايات التي تنتهي إليها أفعال الشخصيات وتصوراتها عن المجتمع والأمّة، في حين يحكم المؤلف الضمني في الخطابات النهضوية رؤية نقدية سلبية للعالم والمجتمع، وتلك السلبية تجعل منه مثقفًا مترددًا بين الإقدام والإحجام. وإن صراع حبكتي الانكسار والانتصار حاسم في بناء أشكال الوعي والمفاهيم ونقد الوعي الطبقي، والتخلف الديني والقبلي، وهيمنة الإقطاع، فالبطل لا يسعى إلى بناء حبكة للعالم وهدم أخرى إلا ليبني منظومة قيم، وأن ظهور هذه الحبكة في سياق رواية النهضة يعزز طبيعتها الإصلاحية؛ لأن الانكسار يعزز الصبر ومراجعة الذات، في حين يعزز الانتصار التفاؤل وقوة الأنا وكلاهما يمثلان سياق عصر النهضة بشكل كبير، وكما أشرنا أن الحبكة ترتبط بالحدث والبطل ارتباطًا كبيرًا، لا سيما أن البطل في سياق عصر النهضة ينهض بوصفه داعيًا للقيم الإيجابية، فغالبًا ما يكون إزاء تحديين الأول مواجهة التخلف الحضاري الذي يعيشه المجتمع، والتحدي الآخر يرتبط بالإصلاح وتهذيب الأمّة[ix]، ومن هنا يمثل الصراع بنية رئيسة في تشكل حبكتي الانتصار والانكسار، لذا يتصلان بشكل عميق بأحلام المثقفين التي تعلقت ببناء دولة الأمّة، وهذا ما يجعل تحديد الهُوية الوطنية في رواية النهضة في العراق على اتصال كبير بمدى استلهام السرد لمعطيات التنوير.

حبكة الانتصار في رواية النهضة

تمثل الرواية الإيقاظية الرواية التعليمية الأولى في العراق، فضلًا عن أنها الرواية الأولى التي أقامت معمارها على حبكة الانتصار، ويقف خلف ذلك أسباب عدة سياقية وثقافية مرتبطة بالمؤلف سليمان فيضي مؤلف الرواية، الذي كان أكثر اندماجًا بالسلطة والمجتمع في العهدين العثماني والانجليزي، فقد انتخب في عام 1910 عضوا في هيئة محكمة الحقوق، ثم أسندت إليه رئاسة المحكمة المذكورة بالوكالة[x]، مثلما انتخب نائبًا عن البصرة في حكومة ياسين الهاشمي[xi]، أي أنه كان جزءًا من مؤسسة الحكم أو قريبًا منها، وموقعه ذاك فرض عليه نمطًا من التفكير، مثلما فرضت عليه ثقافته الإسلامية نمطًا آخر، وأن تلك المنابع السياسية والدينية حفزت فيه الذات المتفائلة، تلك الذات التي ترتبط بالمرجعيات الإسلامية التي تسعى إلى خلق سلام واطمئنان داخليين في الشخصيات الخيرة وبناء الحبكة، وهو ما قاد الحبكة إلى الانتصار، وتتسق حبكة الانتصار مع الثقافتين القومية والإسلامية اللتين يتسم بهما المؤلف، إذ يقول: "على أثر إعلان الدستور وإطلاق الحريات، قويت لدي الرغبة في العمل في خدمة الأمّة العربيّة عن طريق الصحافة والتعليم وإثارة الوعي القومي بين الناس[xii]"، فحبكة الانكسار قرينة الوعي النقدي، في حين أن حبكة الانتصار قرينة الوعي الأيديولوجي الديني أو القومي. إذ إن الثقافة اليسارية تحفز في الخطاب الروائي الذات الناقدة القلقة التي تؤدي إلى ميلاد البطل السلبي.

خضع زمن الرواية لحبكة بسيطة تتكون من تشابك وعقد وحل، وأعني بالتشابك حين سعى خضر وصديقه يقظان إلى إقناع باقل وأبيه لإدخاله المدرسة، وكان موضوع التشابك هو باقل، أما العقد فقد تحقق حين دخل باقل المدرسة وأصبح أسمه سعيدًا، وصار بعد ذلك طبيبًا ذا شأن بعد دراسته الطب في فرنسا، ويتحقق الحل حين يذهب سعيد إلى انقاذ خضر الذي ذهب إلى الحبشة لاكتشاف المعادن، وسجن فيها بتهمة محاولة إحراق قصر الملك[xiii]. ويرتبط ذهاب سعيد إلى الحبشة بالفكرة الاجتماعية الذاهبة لرد الفضل، وإذا كان خضر قد ساعد باقلًا في دخول المدرسة وتغيير حياته، فإن سعيدًا يرمي إلى خلاص خضر من السجن.

ارتبط باقل في بداية الرواية بالجهل لأنه يبرر الكسل والتواكل، وكذلك فتحت حبكة الانتصار الباب لنقد الآدابِ الفجّةِ وفقدان الحشمة في الطبقات المترفة وغير المتعلمة، فالرواية تشخّص أزمة الانسان العراقي والمجتمع لا في فقدانه البعد الحضاري وحسب، بل نسيانه الآداب العامة، أي أنّ الانحطاط لا يتوقف على المستوى المادي بل يمتدّ إلى السلوك والثقافة وهو ما تناولته رواية فيضي. ولا ينشغل نقد السلوك على مستوى الأفراد بل امتد إلى الطبقات والخطاب العام، وهو ما يجعل من سؤال الأمّة أكثر إلحاحًا. وإذا كان باقل قد رفض دخول المدرسة في بداية الرواية، فلم يكن يمثل سوى صوت الجماعة التي ترفض الإصلاح، وتحافظ على القديم لإدامة سلطتها. ويرتبط هذا الزمن بتحول آخر يتصل بالشخصيات المترفة التي تقاوم الحداثة وتؤسس لزمنها الخاص، وهو زمن المحافظة والثبات، وهذا الزمن يتصل بالانكسار أكثر من البناء، حيث انتقلت الشخصيات المترفة من الغنى إلى الفقر[xiv]، فقد بدأت برفض العلم والتمسك بالمال، وهذا التمسك نتيجة افتقارها للوعي اللازم، وتمثل هذه الطبقة حال الأمّة إذا ما صدّت عن النهضة، وقد أشار خضر إلى ذلك قائلًا: "أخي إني أعرف أنك ابن أغنياء لكني أرغب أن تضيف على المال شرف العلم لتعلم كيف تحافظ على مالك[xv]". فقد آل أمر المترفين كما يرى سعيد إلى الانكسار، فقد "أذهب ثروة الأول (القمار) [...] وأفنى ثروة الثاني (الخمر)[xvi]" وهنا يبيّن

المؤلف الضمني أنّ العلم والنهضة ثروة الأمّة؛ لأنّ الزمن كفيلٌ في طيّ الرؤى الأحادية وتعريتها، ويقف خلف ذلك أنّ الشخصيات المترفة متمركزةٌ حول ذاتها، لذا رفعت من شأن التعالي والابتعاد عن الناس، ونجد ذلك في كلمات أبي باقل لابنه حين منعه من الكلام مع الجهلاء[xvii]. في حين أنّ الشخصيات النهضوية ذات بعد اجتماعي، فهم مستندون إلى ميراث التنوير الذي يغترف من التعددية والتغاير، لذا تنغمس بالمجتمع وهمومه، فنجد الموقظ حاضرًا في المدرسة والفضاء الاجتماعي العام والصحف، وكذلك الخطيب الذي استغل المدرسة لبث آرائه التنويرية، فيمثل الإصلاح والمساعدة قيمة عليا لدى التنوير. وبالنتيجة يجد القارئ نفسه إزاء تقابل بين الأهداف الكبرى والصغرى، وبين الغايات المحدودة والبعيدة. وهذا التفاوت يبين سبب انكسار بعض الشخصيات ونجاح غيرها. فالتقابل بين الشخصيات النهضوي والأمّة تقابل بناء وتكامل، في حين أن تقابل الشخصيات المتخلفة مع غيرها تقابل تضاد وتنافر. فحبكتا الانتصار والانكسار تتحقق استنادًا إلى اقتراب الشخصيات من العلم أو الابتعاد عنه. إذا أمكن وصف الحبكة في الرواية الإيقاظية فهي حبكة متفائلة يغلب عليها الأمل والانتصار والرغبة بمنفعة الناس، وتستند تلك الحبكة إلى الميراثين الديني والسياسي.

تقاوم رواية فيضي سلطة الأب الجاهل، لتؤسس لسلطة المثقف، ويقف خلف السلطة الأبوية المترسبة في الثقافة شكل يرفض كل جديد، لذا نجد الخطاب الروائي يوجه نقدًا للممارسات الاجتماعية والثقافية، في مسعى منه لإعادة تشكيل هويتها. وتغلب على الرواية الشخصيات المتناوبة لا سيما المتنورة منها، فدور البطولة ينتهي بانتهاء دور الأطروحة التي تحملها، ثم تكمله الشخصية الأخرى، وهنا تضمر الرواية تقابلًا بين الأفعال والأقوال، فإن أفعال الشخصيات تتضمن خطابات تنويرية في الغالب يراد بها نقل المجتمع وتغيير رؤيته، فهذا خضر يأخذ دورًا مؤثرًا في النصف الأول من الرواية، في حين يكاد يغيب في النصف الثاني، أما صديقه يقظان فقد كان يعلق على حوارات خضر وسعيد في النصف الأول من الرواية، وهذه التعليقات ذات طابع اجتماعي نهضوي، أما سعيد فيمكن عده البطل الحقيقي في الرواية؛ لأنه يمثل الأطروحة الروائية ولحضور تأثيره من أول الرواية إلى آخرها، وقد مثل سعيد عقدة الوصل بين تلك البنى المتصارعة، فمرة يخضع للخطاب المضاد وبذلك تتأسس بنية الانكسار، ومرة أخرى يخضع للخطاب النهضوى فتتحقق بنية الانتصار. لذا تحمل الرواية بعدًا استعاريًا فما انكسار الطبقة المترفة في نهاية الرواية سوى انكسار الأمّة التي تتحقق في طموح النخبة المتنورة، إذا ما تجاهلت العلم وصدّت عنه، وما نجاح باقل في دخول المدرسة ودراسته الطب سوى انتصار تلك الأمّة التي هي في طور التكوين.

حبكة الانكسار الدرامية في رواية النهضة

نجدُ تمثيلات حبكة الانكسار الدراميّ في روايتين متباعدتين من روايات حقبة النهضة، سواء في الموضوع أو سنة الإصدار، فقد صدرت رواية (مصير الضعفاء) عام 1923، وهي ترصد حكايات ثلاث شخصيات، وتجمع تلك الحكايات التحولات الدرامية، نتيجة اصطدام الشخصيات الرئيسة في الطبقات المترفة من تجار وأغنياء وأصحاب سلطة، وقد جرى ذلك لأن تلك الشخصيات تنشد التغيير وتروم الإصلاح، ما يقود إلى تحولات درامية في مصيرها، أما الرواية الثانية فهي رواية (اليد والأرض والماء)، لذي النون أيوب التي صدرت عام 1948، حين دخل (الدكتور حسام الدين) وخطيبته (الدكتورة هيفاء) مع صديقهما المحامي (ماجد) في مشروع لاستصلاح الارض في الريف، بمعونة صديقه (سليم) الذي تعرفوا عليه بسبب مشاجرة على تلك الأراضي التي يروم استصلاحها، ولكن المشروع يتعرض لنكبات من لدن الإقطاع والسلطة، كذلك جهل الفلاحين، لينتهي مشروعهم إلى الانهيار. فالتحولات الدرامية في أحداث الروايتين واضحة، على الرغم من اختلاف المسعى الإصلاحي واختلاف الفضاءين. وتسعى رواية (مصير الضعفاء) إلى تمثيل الشعب العراقي بوصفه أمّة، لذا تنشغل بمشكلات تعيق الأمّة وتؤدي إلى تخلفها، ونجد ذك في موقف حسن الفراتي الشخصية الرئيسة في الرواية "أن العامل الوحيد لتخلف العراقيين وانحطاطهم هو الجهل الذي يضرب أطنابه هذه البلاد[...] رأى هذا الشخص أن المدارس الأميرية التركية مع قلتها وسوء انتظامها غير كافية لتعليم أبناء الوطن، فافتكر أن يتصدّى لفتح مدرسة أهلية[...] ولم تمض بضعةُ أيامٍ حتى انتظم جمع المؤسسين في داره كما رأيت فقرروا أن يعرضوا هذه المسألة على سراة الأمّة ومتموليها[xviii]" فحسن الفراتي يشخص الجهل بوصفه داء الأمّة ودواؤها في بناء المدارس، لذا فالأمّة في رواية (مصير الضعفاء) أمّة عراقية جاهلة، نتيجة غياب التعليم وهيمنة الظلم والتجهيل. وقد تتبعت رواية محمود أحمد السيد ثلاث شخصيات يمكن عدّهم أبطال الرواية، وهم حسن الفراتي وإبراهيم وعبدالله العربيّ، إذ جمْعت المدرسة بين تلك الشخصيات، ولكنهم تركوا الدراسة بعد عملية التتريك، التي فرضتها الدولة العثمانية على البلاد العربيّة، إذ التحق حسن الفراتي بالدراسة في النجف، أما إبراهيم فقد التحق بالسلك العسكري؛ ليكون ضابطًا في الموصل. في حين راح عبدالله العربيّ يبحث عن عمل في البصرة. وقد جاء صوت الشخصيات الثلاث عبر حكاياتهم ردة فعل على تحويل لغة المدارس إلى اللغة التركية، وذاك الفعل يمثل رفضًا لتهميش الهويتين العربيّة والعراقية، وهو ما يسوّغ مجيء حكاية إبراهيم في أول الرواية، أي أنه مقاومة الهُويات الطارئة يقابل أهميته أهمية ترسيخ الهُوية الوطنية التي سعى حسن الفراتي، عبر بناء المدارس إلى ترسيخها، وقد بدأت حياة إبراهيم بانكسار تمثّل ذلك حين فقد والده وضياع ثروته في التجارة، وتلك المآلات التي شكلت بداية حياته حفزته بعد تعرفه على أصدقائه في المدرسة على بناء ذواتهم من جديد، غير أنهم تفرقوا بعد أن فرضت اللغة التركية على المدارس.

قدمت رواية (مصير الضعفاء) شكلًا من الحبكة الفنية، يعظم من أهمية السؤال الثقافي والمعرفي الذي تطرحه الشخصيات، لا سيما أن ذاك السؤال يتصل بالهُوية وتشكيل فكرة الوطن. إذ تمثل ترسيخًا لتقاليد التنوير، وقد جاء الحدث فيها ردة فعل للانكسارات الاجتماعية والفكرية والخيبات التي يعيشها العراق. وإلى جانب الداعي التنويري ثمة حبكات صغرى جانبية ومحرضة للخطاب التنويري، مثل حبكة الصداقة والفرقة التي مثلها الأصدقاء الثلاثة في بداية حياتهم، وحبكة المؤامرة الرومانسية، التي

تمثلت في قصة إبراهيم مع الباشا التركي. فرواية (مصير الضعفاء) تتمثل صورة الأمّة العراقية في محنتها في العهد العثماني، مثلما تتمثل مصير دعاة الإصلاح وهم يواجهون الجهل المهيمن. وتبدأ هذه الحبكة في تأكيد الهُوية الوطنية عبر رفض تهميش اللغة العربيّة في المدارس العراقية أيام السلطنة العثمانية. وتمثل سياسة التتريك محوًا لهُوية الأمّة، في مقابل زرع لثقافة مغايرة، وهذا المسعى قاد (حسن الفراتي وإبراهيم وعبدالله العربيّ) إلى البحث عن بديل للمحافظة على هويتهم، أو تعزيز تلك الهُوية. فإبراهيم يصبح جزءًا من المجتمع العثماني، إذ حاول أن يتحرر من القيد الطبقي والتفوق العرقي عبر الزواج من أخت الباشا[xix]. إذ أقدم على خطوبتها عبر أخذه توقيع الباشا في حالة سكره، ما آل به الأمر إلى السجن. وقد كان إبراهيم في مسعى لبناء رؤية مختلفة، تستند فيه إلى الحرية والرؤية الفردية لمواجهة التصور الذي يقسم المجتمعات إلى أعلى وأدنى، لذا محاولة ارتباط إبراهيم بزهراء أخت الباشا هو شكل من المواجهة بين أمّة صاعدة وأمّة مترسبة متمسكة بتقاليدها وأرثها. وقد أشار له المؤلف في العنوان بمصير الضعفاء، وهو ما يقابله بشكل مضمر مصير الأقوياء. ويقابل ذلك حسن الفراتي الذي سعى إلى بناء هُوية معارضة عبر دراسته العلوم الدينية في النجف ثم دعوته إلى بناء المدارس وإصلاح المجتمع. في حين يلجأ عبدالله العربيّ إلى العمل في البصرة.

تبرز في روايات النهضة القيم النقدية، ويقابل تلك القيم عجز البطل عن التغيير على الرغم من مسعاه إلى المقاومة، وتغيير الوضع الاجتماعي للأمّة، فالفشل التي تنتهي إليه الروايات تعكس فداحة الأزمة التي يواجهها المثقف التنويري. وقد كانت الانتصارات والانكسارات في رواية (مصير الضعفاء) فردية يقف خلفها حس جماعي، وقد استندت صلة الشخصيات الثلاث بالمجتمع عبر علاقة هرمية، إذ بدأت الشخصيات بالانكسار لتؤسس عبر صوتها المتفرد علاقتها بالعالم والمجتمع، ولكن تلك العلاقة تصطدم بالسلطة، مرة حين يواجه إبراهيم الباشا التركي، في محاولة منه للزواج من أخته، أما حسن الفراتي فقد انتهى به مسعاه لبناء المدارس في بغداد للاصطدام مع الأثرياء وقتل أحدهم، في حين أن عبدالله العربيّ قتل تاجرًا بعد أن حرمه أجره وطلب منه العمل (قواد)، فقد قاد مسعى الاصدقاء الإصلاحي النبيل إلى مآلات غير محمودة حين اصطدم بسلطة المجتمع والطبقات المحافظة، وقد انتهى حال الأصدقاء الثلاثة في السجن بمدينة الموصل. وقد شكّل تصاعد التوتر سواء مع الباشا أو مع الأثرياء حبكة الانكسار، وأدّى ذاك الصراع إلى انكسار الدعوة لبناء المدارس، مثلما فشل إبراهيم في زواجه، وكلا الدعوتين تقفان إزاء بنية صراع غير متكافئة، وهو ما قاد إلى الانكسار.

تظهر الرواية الصراع الطبقي في أوضح أشكاله، سواء في قصة إبراهيم والباشا، أم في قصة حسن الفراتي، أم مع عبدالله العربيّ، وحين يسعى التجار إلى استغلال الطبقات الدنيا، يسعى الكرخي والفراتي إلى مقاومة القهر، لكنهم يفشلون في نهاية الرواية، لهيمنة الاستبداد في المؤسسة الاجتماعية، فالحبكة في رواية (مصير الضعفاء) تأخذ شكلًا تصاعديًا، إذ تبدأ الشخصيات بمحاولات التغيير، لا سيما حسن الفراتي وعبدالله العربيّ، وتنتهي بانكسار الشخصيات، وذاك الانكسار يقود إلى تحولات درامية في مصير الشخصية، إذ تنتقل إلى السجن، مما يُعزز فكرة الهزيمة أمام القوى الاجتماعية المهيمنة، فهي تبدأ ببناء صورة الأمّة المتخلفة لتبني صورة الأمّة الناهضة لكنها تصطدم بالسلطة وهيمنة قوى التقليد. ويمكن عدّ ذروة الحبكة حين يقتل حسن الفراتي تاجرًا بشكل غير عمد، أو حين يقتل عبدالله العربيّ

تاجرًا آخر لمنعه حقه وطلبه للعمل قوادًا، أو في مؤامرة إبراهيم، وتجري عبر تلك الأحداث تحولًا جذريًا في مصير الشخصيات الرئيسة.

يمثل (حسن الفراتي) صوت المثقف، مثلما يمثّل الناقد للثقافة التقليدية، ويمثل التغير أهم مساعيه، فقد رأى "أن العامل الوحيد في تأخر العراقيين وانحطاطهم هو الجهل الذي ضرب أطنابه في هذه البلاد من مدة طويلة حتى جعلها وأهلها في أتعس الحالات[xx]" إذ انطلق الفراتي من رؤية واضحة وفهم جلي للمشكلة العراقية، وقد ربط التأخر بالجهل، ما قاده إلى جملة من الأفعال، أهمها بناء المدارس عبر حث الأثرياء والتجار، والدعوة إلى العلم، وقد بدأ متفائلًا مندفعًا، مشخصًا داء المجتمع العراقي وأسباب تخلفهم، مؤشرًا على دور العلم في النهضة، ثم انتقل إلى موقع الصدمة والمفاجئة إذ يقول: "أعلن المؤسسون عن فتح المدرسة في صحف العاصمة. ثم ذهبوا عند هذا وذاك من التجار وغيرهم، وبقوا ثلاثة أشهر كاملة في سعي متواصل وجد واجتهاد، لكنهم ويا للأسف لم يتمكنوا من جمع أكثر من عشرة ليرات.[xxi]" فلم يقابل المجتمع تلك الدعوة الإصلاحية بأيّة استجابة، ما شكل تحولًا في طبيعة تلك الدعوة، فالإحباط والخيبة انعكس في لغة السرد، وفي خطاب الشخصيات التي تحولت من التفاؤل إلى اليأس وأظهرت مشاعر الألم والانكسار، نتيجة الاستجابة السيئة من لدن طبقة التجار والأثرياء، لا سيما أن تلك الطبقات لم ترفض فحسب، بل واجهت تلك الدعوة الإصلاحية بقوة، قادت حسن الفراتي إلى التراجع. وهذا التحول في طبيعة الشخصية لم يمر من دون الدخول في صراع مع الطبقات الثرية، "لقد تصدع رأسنا في هذه الأقوال الفارغة.. مدرسة.. مشروع خيري.. نفع الأمّة.. خدمة الوطن... إن هذه إلا كلمات اختلقتموها أنتم .. ولا أدري ما الفائدة من فتح المدرسة وهذه عشرات المدارس الأميري في العاصمة[...]فلسنا بوكلاء على الناس كي نؤسس لهم المدارس[xxii]"، ويمثل رد الأثرياء تصور السلطة الرافض لأي تغيير. ويقابل المؤلف الضمني بين ثقافتين ثقافة تقليدية محافظة وثقافة طليعية، وكل ثقافة تفرز قيما تتقاطع مع الثقافة الأخرى، فقد حول الأثرياء المدارس ونفع الأمّة إلى أقوال جرى اختراعها من لدن دعاة الإصلاح، ليسهل لهم مواجهتها ورفضها. وقد شكلت دعوات حسن الفراتي خطرًا على الأثرياء، أدّى في النهاية إلى عزلته، وأن غلبة قوى التقليد في النهاية وانتصارها يرتبط أولًا بفردية الدعوات الإصلاحية، وهيمنة القوى الرجعية. ويظل ما يحرك فعل تلك الشخصية، هو تعزيز الهُوية الوطنية في النفوس عبر إظهار أهمية العلم، فغيابه يعزز الجهل والفقر، ويغيب الحس المشترك وتعددية أشكال الوعي، مثلما ينأى بالشعب عن التفاوت الطبقي.

تحمل الرواية دعوة ضمنية للفرد، لأخذ دوره في سبيل تنوير الأمّة، غلب في نهايتها صوت الجماعة على صوت الفرد، على الرغم من تأثير تلك الأصوات وأهميتها، وتبرز في هذه الرواية قيم إيجابية، تتصارع مع القيم السلبية منها قيم الجمال والأمل والإيمان بالتقدم الاجتماعي، وتلك القيم التي تستمد من صميم حكايات الشخصيات الرئيسة لا تنفصل عن الرغبة؛ لأنها تحتوي على تمنّي شيء يفوق ما تملكه تلك الشخصيات[xxiii]، فإبراهيم كان يطمح إلى كسر التفوق الطبقيّ والعرقيّ، في حين أن حسن الفراتي يرمي إلى تحريض الأغنياء لبناء المدارس لتعليم المجتمع ونهضة الأمّة، ومن هنا يتحقق التنوير لا في أفعال الشخصيات وحسب بل في طموحها الفردي الذي يحيل إلى طموح المثقف التنويري القادر على التغيير والمواجهة. فالرواية رواية تغلب عليها الأفعال مثلما تُعلي من المقدرة الفردية في فعلي المواجه والتغيير[xxiv]، وتحمل هذه الرواية تقابلًا بين طبقتين اجتماعيتين الأولى مترفة، وهي في الغالب متخلفة، والثانية تشكل تيار النهضة، وهي الطبقة الناشئة، وهي ما تمثل عصب الإصلاح في الخطاب الروائي. ففعل البطل مهما صغر أو كبر يمثل احتجاجًا على هيمنة قوى الاستبداد وقوى المحافظة. ومن

هنا يمكن تلمس حركة الإصلاح في الخطاب الروائي تجري بشكل عكسي، أي من الأسفل إلى الأعلى، أي أنها تنطلق من الطبقة الفقيرة والوسطى إلى الطبقة الغنية، وهذا الصراع الطبقي يشكل بنية التنوير؛ لأن الشخصيات تقع بين بنيتي الانكسار والانتصار. فالبطل في رواية (مصير الضعفاء) بدأ إيجابيًا نازعًا إلى الحرية أو راميًا إلى هدم التقاليد البالية أو مواجهًا لقوى ظالمة، أي أن الذات المتفائلة والطامحة بالتغيير تمثل جوهر النصف الأول في الرواية أو تمثل معظمها ولكن تلك الذوات الفردية واجهت سلطة المجتمع فانتهت إلى الانسحاب كما هو حال حسن الفراتي، ومن ثم قتل التاجر. وهذان الفعلان يشكلان البطل السلبي، أو إلى السجن كما هو حال إبراهيم وعبد الله العربيّ. وأن فعل القتل يمثل تجسيدًا لانهيار الدعوة الإصلاحية إزاء الدعوة التقليدية، ويظهر تحكم نسق الصراع في الخطاب الروائي وذروته. الذي نقل البطل من الانتصار إلى الانكسار. فالرواية بدأت بحبكة انتصار لتنتهي إلى انكسار البطل، وتحول الحبكة يرتبط بخيبة الخطاب الإصلاحي كذلك خيبة المصلحين في التغيير.

تتمثل رواية (اليد والأرض والماء) لذي النون أيوب مفهوم الأمّة العراقية في خطابها، فهي تنظر إلى الشعب العراقي بوصفه أمّة، ولكنها تمثلت صورة الأمّة المتسلط عليها لا الأمّة الجاهلة كما في رواية (مصير الضعفاء)، وقد تمثلت هذه الصورة بشكل واضح في مقدمة الرواية إذ قال ذو النون أيوب: "هذه الرواية بناها الخيال من لبنات الواقع[...] وكل ما استطيع أن اتحداك به أن شككت في صحة ما ورد في هذه الرواية مما يتعلق باليد المغلولة والأرض المحتكرة والمياه المضاعة، ان أقول: عليك بإضبارات الدولة وأوراقها فستجد إذا سمحت لك الدولة بالكشف عن عوراتها أن الحقيقة أغرب من الخيال[xxv]" ويعود تمثيل هذه الأمّة في رواية أيوب إلى مرجعياته الشيوعية التي تقف ضد السلطة موقفًا اشتراكيًا ينحاز فيه إلى الطبقات الدنيا في المجتمع العراقي. فالموقف من الأمّة وتمثيلها في الرواية يتبع مرجعيات المؤلف السياسية والاجتماعية والثقافية، إذ تقول إحدى الشخصيات: "يذكرني هذا الوعد بتصريح قد صرح به رئيس الوزراء الأسبق، لإعمار أراضي العراق الواسعة وفحواه توزيع الأراضي على المثقفين وتكوين مزارع تعاونية[...] ولو لم نكن نحن أبطال النهروان لقلنا ياله من رئيس جليل طيب القلب راغب في خير الأمّة[xxvi]" فالرواية تتمثل صلة الأمّة بالإقطاع من جهة واستغلال الفلاحين من جهة أخرى، لتتمثل في النهاية دور السلطة في إدامة التسلط والجهل.

تبدأ رواية (اليد والأرض والماء) لذي النون أيوب بصراع جرى بين الفلاحين حول قطعة أرض، وتنتهي تلك المعركة بمقتل بعضهم وجرح آخرين، ومنهم (سليم)، الذي نقل إلى المستشفى، ويقود ذلك الحادث إلى أن يسهم (الدكتور حسام الدين) وخطيبته (الدكتورة هيفاء) في معالجتهم من الجروح، وقاد ذلك الخصام؛ لأن يتعرف سليم بحسام وهيفاء في المستشفى، ويفتتح عليه أفقًا جديدًا، إذ يدعوهما إلى زيارته في الريف مع صديقهما المحامي (ماجد). وهناك يطرح عليهم (زبالة) فكرة الاشتراك في مشروع زراعي، فيتحمس (ماجد) لذلك، ويدخل الجميع في المشروع، لكنه يتعرض إلى نكبات وخيبات كبيرة، وشكاوى من الاقطاعيين وأصحاب السلطة والتأثير، فيتعرض إلى خسارة كبيرة. ثم تحاول (سنيّة) أن تسعف المشروع بمشاركتها بشيء من المال وبخبرتها الاقتصادية، وسرعان ما تقوى العلاقة بين (ماجد) و(سنية) ليخطبها بعد ذلك. ولكن المشروع راح يصدم بالآفات الزراعية والفساد الإداري وانتشار الرشوة ومحاربة الإقطاع. وانتهى بخروج الأصدقاء محبطين لا سيما بعد أن تركهم الفلاحون

من دون أن يدفعوا ما بذمتهم من ديون. مع ذلك لا يخرج (ماجد) خاسرًا خسارة تامّة، إذ خرج بخطبة (سنية) وبصديق وفيّ هو (سليم) الذي يبقى إلى جانب الأصدقاء.

تختلف حبكة الانكسار في رواية (اليد والأرض والماء) في جمعها بين البعدين الدرامي والاجتماعي، حيث تشارك الشخصيات الرئيسة الفلاحين في الثورة على الإقطاع، وقد حملت رواية ذي النون أيوب بعدًا اشتراكيًا يغلب الطابع المجتمعي، وما ينطلق من ذاك البعد المرجعي هو انشغال المثقفين بالطبقات العاملة أولا. فضلًا عن امتلاكها الوعي الكامل للمواجهة والتغيير، ولكن فشلها في النهضة يقع على عاتق المجتمع، فهو فشل اجتماعي في المقام الأول؛ لأن النخبة المثقفة على وعي تمام بالمشكلة الاقطاعية. وتقف رواية ذي النون أيوب عند الواقعين الاجتماعي والثقافي في الريف، فهي تعالج مفهوم الصراع الطبقي من خلال تناولها معاناة الفلاحين وصراعهم مع الإقطاع[xxvii]. فالرواية تسعى إلى تأسيس هُوية جديدة عبر الخلاص من الإقطاع، وقد نهضت في البداية على طموح البطل (سليم) والشخصيات الرئيسة الأخرى، وهم (ماجد) و(حسام) و(هيفاء)، وقد شكل التفاؤل والرغبة بالتغيير صورة البطل الإيجابي، الذي ينشد البناء والإصلاح الاجتماعي والزراعي، وهو ما تنبه إليه ماجد "وهمس ماجد في إذن الدكتور وهو يبتلع فلذة كبيرة من اللحم : ألا تشعر بالغبطة والسعادة، وأنت ترى المئات من هؤلاء الفلاحين يغمرهم سرور مفرط، وتلوح عليهم إمارات السعادة والنشاط؟ أنظر إلى الأيدي وهي تصفق للمياه المتدفقة المسرعة إلى الأرض الميتة[...] إن الربح قد أصبح في نظري أمرًا ثانويًا. لقد وجدت الآن معنى من معاني السعادة التي ينشدها الإنسان في كثير من الأحيان فلا يجدها. لقد وجدتها في بريق عيون هؤلاء الفلاحين[xxviii]" فالبطل الإيجابي منفصل عن المنفعة الذاتية ومتصل بمنفعة الأمّة، فالذات الاشتراكية لا تطمح إلى الربح بقدر ما تروم التغيير الاجتماعي، وتتمثل تلك الذات بشخصيتين (سليم وماجد)، فماجد يقوده شعوره التنويري إلى الاندماج بالطبقات التي يسعى إلى توعيتها، إذ يقول:"إني لم آت للمشاحنة أيها السادة فأنا أطلب منكم أن ترعوا مصلحة جيرانكم الفلاحين ، فالأرض لهم لا لي وأنتم إذا ساعدتموهم الآن كسبتم صداقتهم[xxix]" وهنا يصبح البطل فردًا فاعلًا مثلما يصبح ذاتًا اجتماعية منتمية للكيان الاجتماعي، ولكن العجز الاجتماعي والهيمنة الاقطاعية قاد المشروع إلى الفشل. فالفشل في رواية (اليد والأرض والماء) لم يكن فشل المثقف؛ لأن المرجعية مرجعية اشتراكية بل فشل الثقافة والأمّة.

تشكلت حبكة الانكسار في رواية (اليد والأرض والماء) عبر سلسلة من الأحداث واجهها ماجد ورفاقه أدت إلى هزيمته أو انكسار مسعاه الإصلاحي، مثلما مثّل انتصارًا للإقطاع. وأول تلك الأسباب غياب الخبرة العملية التي تقابل الخبرة النظرية التي يتمتع بها ماجد، وقد نبّه زبالة ماجدًا لذلك بقوله: "إنك لا زلت [كذا] فجا أيها السيد، وليست هذه هي المرة الأولى التي أبديت فيها قلة خبرة في التعامل مع الحياة العملية، ولكنها ستكون الأخيرة المفجعة. وسترى أن هؤلاء الذين تريد أن تعاملهم بمنتهى الشرف واقفون لك بالمرصاد ليعاملوك بمنتهى النذالة[xxx]" مثّل ضعف الرؤية وقلة الخبر لدى البطل في أمور الزراعة واستصلاح الأراضي بداية لهزيمته، فلا يكفي وجود المال وحده للانتقال من طبقة إلى أخرى، بل يلزمه تغير في الرؤية والإمساك في السلطة، فروايات النهضة تنتهي إلى الانكسار؛ لأنها روايات معارضة وهي تحمل في طياتها دعوات لإصلاح السلطة؛ لأنها العقبة الأكبر إزاء الإصلاح، قد سعى الإقطاع إلى استغلال جهل الفلاحين وفقرهم، وفي المقابل يستند البطل إلى وعي تبسيطي في فهمه للعالم، وفي مسعاه للانتقال من طبقة لأخرى. وقد انتبهت لذلك سنية بقولها: "فأنت ترى يا سيدي الأستاذ المحامي أن أمثالك يمكنهم النجاح في جمع الثروة والتحول من طبقة إلى أخرى، ولكن بالصدفة وحدها،

ففي مثل هذا المجتمع لا يسير شيء على قاعدة[xxxi]" ويستند بناء الحبكة إلى جملة من الآليات، فالبطل يبدأ باستراتيجية التفكير والأمل، ثم ينتقل إلى استراتيجية المقاومة ورفض الانصياع والمهادنة، ثم الفشل والانسحاب، فضلًا عن أن الشخصيات تختلف في رؤيتها وتكتيكها، فإذا كان ماجد ورفاقه يؤمنون بالقانون ويستندون إليه، فإن كبار الاقطاعيين يلجأون إلى الرشوة والمحسوبية في تحقيق مكاسبهم. وأن اختلاف الآليات والتكتيك جعل من فعل الصراع أكثر ضراوة بين التيارين، وقد انتبهت في حوارها مع ماجد "فقال ماجد: ولكني أعتمد على القانون والنشاط والرغبة في فائدة المجتمع. فقالت سنية: لا تغالط يا أستاذ ، ولست أخالك طفلًا تؤمن بأن هذه الأمور وحدها تكفل لك النجاح، فأنت محام ولا بد أنك قد رأيت بصورة عملية قوة هذه القوانين التي تعتمد عليها[xxxii]" لذا انتهى مشروع ماجد ورفاقه بالفشل، إزاء قوة متماسكة ترفض أي تغيير، فضلًا عن اختلاف الآليات والرؤية، فقدَ ماجد نتيجة الصراع الموارد التي يستند إليها، ما أدّى إلى تشتت الفلاحين.

تقدم رواية (اليد والأرض والماء) خطابًا ينتصر للمقموعين والمهمشين، ويظهر أصواتهم، فالرواية تمثل نضالًا ضد البرجوازية الجوفاء، التي تشكلت نتيجة مخاضات نشأة الدولة والإصلاح، مثلما تمثل نضالًا ضد الطبقات الصاعدة، التي شكلت أس الدولة العراقية الحديثة، فقد تحولت الطبقات الصاعدة من أداة للنهوض والبناء، إلى وسيلة للقمع والهيمنة ورفض التغيير، ففي الخطاب الروائي ضحايا من فلاحين متورطين في تشييد التخلف وتبجيله، وتمثل ذلك بالإقطاع وأصحاب السلطة. وتسعى هذه الرواية إلى بناء فرضية أن الدولة التي تعاني من انهيار على المستوى الداخلي لا يمكنها أن تبني قوة ونفوذًا على المستوى الخارجي في مقاومة الانجليز والصهاينة، أي أنها تشير إلى عزلة جسد الدولة عن المجتمع، وهو ما حوّل مؤسسات الدولة إلى وسيلة للهدم، ووسيلة للأثرياء والمنتفعين لا الفقراء والمعدمين. ارتبط تحول الرواية من البطل الايجابي إلى البطل السلبي بفشل المشروع الزراعي وانسحاب أصحابه، وانخراطهم في العمل الوظيفي وفي مداواة الجرحى، الذين سقطوا في التظاهرات الرافضة لمعاهدة بورتسموث. ويمكن تقسيم بنية الخطاب الروائي إلى ثلاث مراحل: مرحلة البناء والتأسيس، وهي مرحلة اتصال ماجد ورفاقه بسليم، وتأسيس مشروعهم الزراعي، ثم مرحلة المواجهة والتعثرات، وقد شكلت معظم الخطاب الروائي، إذ ضمت صراع ماجد وسليم مع أصحاب المال والنفوذ، الذين يرمون إلى إزاحته من أرض النهروان التي استصلحها. وتمثل المرحلة الأخيرة مرحلة الفشل، التي تمثلت بانسحاب الفلاحين، وخسارة ماجد ورفاقه المشروع.

حبكة انكسار الهدف في رواية النهضة

تقف رواية (جلال خالد) بين انكسارين: انكسار المثقف الفرد بسبب الاحتلال الانجليزي لبغداد، وانكسار المثقف المصلح لفشله في تحقيق هدفه الإصلاحي، وبين الانكسارين تسعى رواية (جلال خالد) إلى بناء النزعة التقدمية وتشيد الخطاب الإصلاحي في العراق، وهي تمثل فكرة الكرامة الوطنية[xxxiii] والتحديث، والبطل شأنه شأن رواية (مصير الضعفاء) من عامة الناس، فهو شخص عادي، ولم يكن سؤال التنوير الذي تقترحه الرواية بأي وقت سؤال السلطة، بل هو سؤال الذات المثقفة، التي تحاول إعادة قراءة المفاهيم المركزية في سياقها. فهي توازن بين عالمين، كل عالم يمثل أمّة بإخفاقاتها ونجاحاتها، والرهان الذي تسعى إلى تحقيقه هو النهضة. فقد رحل جلال خالد إلى الهند ليواجه إخفاقاته/ إخفاقات المثقف العراقي، ولكنه وجد نفسه في الهند إزاء مشكلات مختلفة، قادته إلى مساءلة الثقافة عبر الانفتاح على الآخر. فقد وجد البطل منذ الخطوة الأولى في الهند نفسه إزاء مشكلات جديدة تضعه والعراق في موقع جديد في العالم، وهنا يمكن للقارئ الانتباه إلى الطبيعة المتفردة لرواية جلال خالد فقد استند تكوين الأمّة إلى الأمّة المرتحل إليها. وحين يتوجه جلال خالد صوب الهند على ظهر باخرة، يأخذ ذلك المسعى شكلين: الشكل القريب ويتمثل بهروب البطل من الغزاة الذين يدخلون بغداد، والشكل البعيد يرتبط بالسياق الإصلاحي، وسؤال التنوير لا سيما أن الرحلة قادت البطل إلى الانفتاح على عالم آخر، فهو هروب من انغلاق السياق العراقي إلى الانفتاح على سياقات أخرى، تمنحه أجوبة عن المشكلة التي تلمّ بالمجتمع العراقي، فإذا كان السياق الأول سياق انكسار، فإن السياق الآخر سياق انتصار للسؤال الإصلاحي، وأن خلق مثل هذين السياقين المتصارعين يؤكد التوتر القائم على التشابك والتضاد، وقد لجأ البطل إلى الارتحال لشعوره بضياع الهُوية الوطنية، لذا تشكل رحلة الهند بحثًا عن الهُوية.

تحضر في رواية (جلال خالد) الحبكة الغرامية بشكلها البسيط، فهي تضيع وسط خطاب تنويري أوسع، وإذا كانت العائلة اليهودية تمثل بنية الانكسار والهروب، فقد مثّل لقاء جلال خالد بالمثقف الهندي(سوامي) تأسيسًا لبنية الانتصار، وفضحًا للانكسارات التي يعيشها المجتمع، وقد تمثل الانكسار والانتصار على مستوى الأحداث في الرواية، كما هو الحال مع حب جلال خالد لسارة الذي انتهى بالفشل. وعلى مستوى القول حين فشلت الدعوات الإصلاحية التي تبناها البطل، إذ واجه تحديين الأول نفسي ارتبط بحبه لسارة، والآخر إصلاحي ارتبط بالمشكلة العراقية.

تبدأ الرواية مع البطل السلبي أو المهزوم الذي يترك بلده بعد دخول الانجليز إليه، وقد ظهرت طبيعة البطل في حواره مع الكاتب الهندي: "قال الكاتب الهندوي: - إذن، لقد خرجتم من بغداد تخلصًا من شدة وطأة الاحتلال؟

- كرهت أن أبقى فيها وأنا لا أرى أمامي إلا حرية مستلبة، وحقًا مضاعًا، وسجنى[كذا] يكسرون الصخر على قوارع الطرق.

- ولكننا نحن الذين ندعى بالوطنيين في الهند لا نبرحها. وههنا في الهند المملكة العظيمة المحروبة نثير المواطنين[xxxiv]" يقابل هذا الحوار بين شكلين من المثقف أحدهما ملتزم والآخر خائف ومهزوم، قد فضّل الغربة على وطنه، وهذا الأخير يمثل المثقف العراقي الذي يستتر بالغربة لبث آرائه، ويقابله المثقف الهندي الذي لا يكف عن المواجهة والتصدي للاستبداد والتخلف، وهو مثقف غير انهزامي. وإذا ما تأملنا رحلة جلال خالد بشكل كلي تمثل بنية انكسار إزاء الاحتلال الانجليزي، لا سيما أنه انهار بعد

رجوعه إلى الوطن وفشل الثورة. ظل جلال خالد مهجوسًا بمشكلات بلده[xxxv]، فهو يتعاطف مع شقاء الناس المستمر، الذي يجلبه لهم تصدع النظام القديم وقيام النظام الجديد، فالخطاب الروائي يحمل نقدًا للتخلف الاجتماعي، مثلما يحمل نقدًا للطبقات المترسبة والجديدة. وهنا تظهر شخصية البطل الناقد وهي تحيل إلى المؤلف الضمني، أكثر ما تحيل إلى البطل، ثم ينتبه إلى المرأة العاملة، التي تنتقل بين عمل البيت والمصنع "فقد رأى كل زائر الهند، النسوة المعدمات يتركن أطفالهن في بيوتهن، بعد أن يخدرنهم بالأفيون. ولا أجر لهن عليها إلا فضلًات الموائد[xxxvi]" فالعبودية الاجتماعية في الهند تابعة للمصانع ورأس المال والشركات، وهي عبودية العمال والمستغلين، في حين أن العبودية في العراق عبودية الفلاحين والإقطاعية، مثلما هي عبودية رجال الدين والثقافة المترسبة، وقد وجد جلال خالد نفسه في الهند إزاء بيئة أكثر تعقيدًا وتشابكًا.

يقدم الخطاب الروائي صورة البطل المغفل، أو البطل الجاهل، لا سيما أنه وجد العراق غائبًا عما يحدث في العالم من دعوات إصلاحية، فقد نبهه الكاتب الهندي إلى أن الدعوة إلى الإضراب ظاهرة عالمية وليست عفوية، ولذلك يقول: "أجد أمامي أناسًا وجهتهم في الحياة غير وجهتنا[xxxvii]"، وهذا التحول الأخير يضع جلال خالد في السياق العالمي سواء في فهم الحركة العمالية أو في فهم الصراعات الدينية التي تجرى في الشرق. كذلك يدرك البطل أن أزمته هي أزمة المجتمع كله وأزمة الثقافة. وقد أعطت رواية جلال خالد صورة مميزة لبطل الرواية، وهي تتبع سيرته سواء في ترحاله أم في صوته الإصلاحي، وهذا البطل الذي مكنته الرحلة من اللقاء بشخصيات هندية متنورة، نقلته من البراءة إلى التجربة، ومن الفهم الضيق والمحدد للعالم إلى الفهم الواسع المتعدد، وهو ما أتاح له فهمًا مختلفًا في للتجربة العراقية.

ينهض الخطاب الروائي على بنية الصراع والتضاد بين القوى الاجتماعية والثقافية، ويعبر تصادم تلك القوى عن أزمة اجتماعية كبيرة سواء في المجتمع أم في بناء الهُوية[xxxviii]. فقد شغل قسم الرسائل بهمٍ مختلفٍ قليلا أم كثيرًا عن القسم الأول، فقد ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك، فرأتها مشكلة تكمن في الثقافة، وفي الوعي الذي يسيرها، واختارت أن يكون الحل في نقد الثقافة السائدة، والمؤثرة، الموجودة في الكتب، وفي الأغاني، وفي النصوص. وهي ثقافة تعزز سلوكيات الكسل والظلم والقبول به وتجعل الوضع القائم، عصيّاً على التغيير، وترجع الدعوات عاجزة عن التأثير في المجتمع، مثلما تجعل الفعل نفسه محكوماً بالفشل[xxxix]. أي أن القسم الأول إزاء مثقف وثقافة شرقية وعالمية، في حين يقف القسم الثاني إزاء الثقافة المحلية ويسعى إلى مراجعتها بوعي ناقد. ولكن تلك المراجعة وذلك المسعى انتهى إلى الفشل،[xl] فجلال خالد وجد في النهاية رسائله تتوجه إلى مجتمع مصاب باليأس والاحباط مثلما أصيب أصدقاؤه، وهما أحمد مجاهد و(ك . س) الذي ينتهي إلى الضياع مثل انسان سحقته الحياة، لذا يختار الزواج على مسعاه لإصلاح الناس[xli]، ويمثل ذلك انسحابًا من الدعوة التنويرية والمسعى الإصلاحي الذي يقوم به مع صديقه. أما أحمد مجاهد وفي هذه الفترة يصاب باليأس، لذا يلجأ إلى إحدى عشائر الفرات متخفيًا من مطاردة المحتلين. هذه العشائر التي أحبها لبطولتها في الثورة، ولكنه لا يجد فيها إلا الفقر والقذارة والظلام ، فيعتوره اليأس ولا تعود تهزه رسائل جلال المليئة بالصبر، النابضة بالعناد المتمثلة أبدأ بتعاليم سوامي[xlii]، وهذا الانسحاب يشير إلى تحول الشخصيات الإصلاحية من التفاؤل والحرية إلى السلبية واليأس ويؤكد ذلك هيمنة حبكة الانكسار في رواية جلال خالد على الرغم

من ضعف الحبكة الفنية بشكل .عام إزاء الخطاب الإصلاحي. فرواية (جلال خالد) تمثل مشاعر الإحباط العميق وأزمة الهُوية في حقبة النهضة. تجلت هذه المشاعر بقوة في النهاية القاتمة للرواية حيث يظهر البطل الرومانسي معزولًا مهملًا من أصدقائه الذين شعروا أنهم خانوا القضية وتخلوا عن النضال، وقد جمعت رواية (جلال خالد) بين انكسارين: الانكسار الاجتماعي والانكسار في بلوغ الهدف، الأول ناتج عن فشله في مواجهة التحديات الاجتماعية، إذ إن توقعات المجتمع تصطدم بتوقعاته الإصلاحية ما يقوده إلى الفشل.

النتائج

تنتهي الدراسة الى نتائج عدة:

- تنتمي روايات النهضة إلى شكلين من الحبكة الأول ينتمي لحبكة الانتصار، وتتحقق هذه الحبكة حين تنجح الدعوات الإصلاحية التي تحملها الشخصيات، ولا سيما البطل، وتمثل رواية سليمان فيضي شاهدًا على حضور هذه الحبكة، ويتميز البطل في حبكة الانتصار بالإيجابية والتفاؤل وصناعة الأمل في حين يتسم البطل في حبكة الانكسار بالسلبية، ويقف خلف ذلك الابعاد السياسية والأيديولوجية للتأليف. وتمثل حبكة الانكسار البنية الحاكمة في معظم روايات النهضة، فيمكن للقارئ أن يجدها في روايات محمود أحمد السيد جميعها: (في سبيل الزواج) ورواية (مصير الضعفاء) ورواية (جلال خالد)، وكذلك تحضر في روايتي ذي النون أيوب، (الدكتور إبراهيم) ورواية (اليد والأرض والماء)، مثلما تحضر في رواية عبد الحق فاضل (مجنونان)، وغيرهم من الروايات التي صدرت في تلك الحقبة، وحملت إشكالات التنوير.

- تختلف طبيعة حبكة الانكسار بين رواية وأخرى، ويقف خلف ذلك السؤال الثقافي الذي يدفع المؤلف ويوجّه الشخصيات. فالسؤال الثقافي في روايات ذي النون أيوب يختلف عن روايات محمود أحمد السيد، ويتصل ذلك بثقافة المؤلف ومرجعياته الأيديولوجية والثقافية ورؤيته لإشكالات الأمّة.

- تمثل هيمنة حبكة الانكسار في روايات حقبة النهضة في العراق، إشارة لشعور المثقف التنويري بمصير النهضة، ومآلات الدولة التي تخطو إلى مصير مجهول، فهي تقف إزاء تحديات كبرى تعاكس ريح النهضة، وتقاوم محاولات التغيير، التي ينهض بها أبناؤها. وأن غلبة حبكة الانكسار يؤكد انحياز الخطاب الروائي إلى البعد الأيديولوجي اليساري الرافض لأيديولوجيا الدولة.

- تحضر في رواية النهضة تحضر حبكة الانتصار مثلما تحضر حبكة الانكسار، وكثيرًا ما يتداخلان في بناء أشكال الوعي، والرؤية الكلية للحقبة المعرفية، فحضور البطل الايجابي إلى جانب البطل السلبي مبرر في سياق حقبة النهضة، مثلما أنه مبرر في سياق تلك الروايات، فهي نتاج الانكسارات الاجتماعية والثقافية والأيديولوجية التي يتعرض لها المجتمع. فالخطاب الروائي في تلك الحقبة يستهدف التغيير مدفوعًا بدافع إنساني، وقد كشف عن ذاك بناء الحبكة وصناعة الشخصيات، وهو ما يختلف عن الحقب الأخرى التي تغلّب فيها ما هو أيديولوجي وزائف.

جدول يتضمن أنواع الحبكات في الرواية العراقية إبّان حقبة النهضة والأدوار التي تنهض بها والوظائف التي تشغلها

نوع الحبكة	الأدوار الرئيسية	الوظائف	صلة تشكل الحبكة بتشكل مفهوم الأمّة	تمثيلات مفهوم الأمّة
حبكة الانتصار	- البطل المتفائل (مثل سعيد في الرواية الايقاظية) - المثقف المنتمي للسلطة (مثل سليمان فيضي) - الشخصيات النهضوية	- تعزيز التفاؤل والأمل الاجتماعي - نقد التخلف والفساد الاخلاقي - بناء قيم التنوير والعلم	ترسيخ الهُوية الدينية والاجتماعية عبر العلم والإصلاح - تمثيل الأمّة الناهضة التي تستند إلى القيم القومية	بناء أمّة ناهضة: انتصار سعيد في التعليم يمثل إحدى وجوه تشكل الهُوية الوطنية
حبكة الانكسار الدرامي	- المثقف الناقد (مثل حسن الفراتي في رواية مصير الضعفاء) - الشخصيات المصلحة الفاشلة (مثل ماجد في رواية اليد والارض والماء) - الطبقات المقهورة (الفلاحون، المهمشون)	- كشف التحديات الطبقية والاجتماعية - فضح هيمنة الاقطاع والفساد	- تشخيص أزمة الهُوية نتيجة الجهل والاستبداد. - ربط مصير الأمّة بصراعها ضد القوى التقليدية المهيمنة.	- تفكك الأمّة: فشل بناء المدارس في رواية (مصير الضعفاء) يرمز لانقسام بين الطبقة المترفة والمثقفة. - يمثل الصراع مع الإقطاع إحدى أوضح وجوه تبعية الأمّة للقوى الداخلية.
حبكة انكسار الهدف	- البطل المهزوم (مثل جلال خالد). - المثقف المرتحل/	يوضح عجز الفرد إزاء الأنظمة الاستعمارية/	- إزالة عزلة الهُوية الوطنية في مواجهة التحديات	أزمة الهُوية الجمعية، وتجسد تلك الأزمة في هروب البطل

	المنفصل (مثل الشخصيات الهاربة من الاحتلال).	الاجتماعية. - تبيان دور الثقافة والمثقف في تراجع الوعي الإصلاحي	الخارجية والداخلية. - ربط فشل الإصلاح بغياب الوعي الجماعي	إلى الهند، وحمل ذاك الهروب رمزية فقدان الثقة في المشروع الوطني الجديد الذي ولد مع الاحتلال.

[i]- **فن الشعر**، أرسطو، ترجمة وتعليق: إبراهيم حمادة، مركز الشارقة للإبداع الفكري- الامارات، د.ط، د.ت: 128.

[ii]- المصدر نفسه: 128

[iii]- **الحبكة**، ألبزابث ديل، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، در الرشيد للنشر- بغداد، ط1 1981: 12.

[iv]- ينظر: **مورفولوجيا الحكاية الخرافية**، فلاديمير بروب، ترجمة: أبو بكر أحمد باقادار وأحمد عبد الرحيم نصر، النادي، دار البلاد- جدة، ط1, 1989: 82, 93.

[v]- ينظر: **الزمان والسرد**، بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، ج1، دار الكتاب الجديد- بيروت، ط1، 2006: 66.

[vi]- **Reading for The Plot: Design end intention in Narrative**، Peter Brooks، Harvard university press Cambridge، Massachusetts London، Engiand، 1984: 5.

[vii]- **سرديات الأمّة: تخييل التاريخ وثقافة الذاكرة في الرواية المغربية المعاصرة**، إدريس خضراوي، أفريقيا الشرق- المغرب، ط1 2017: 19.

[viii]- **الهُوية والذاكرة الجمعية: إعادة إنتاج الأدب العربيّ قبل الإسلام، أيام العرب أنموذجا**، د. عبد الستار جبر، تقديم: نادر كاظم، المدار الإسلامي- بيروت، ط1، 2019: 4.

[ix]- ينظر: **قاموس السرديات**، جيرالد برنس، ترجمة: السيد إمام، ميريت للنشر- القاهرة، ط1، 2003: 86.

[x]- **في غمرة النضال: مذكرات سليمان فيضي**، سليمان فيضي، شركة التجارة والطباعة المحدودة- بغداد، 1952: 76.

[xi]- ينظر: المصدر نفسه: 303- 304.

[xii]- المصدر نفسه: 67.

[xiii]- ينظر: **الرواية الإيقاظية**، سليمان فيضي، دار قناديل- بغداد، ط1، 2019: 131-132.

[xiv]- ينظر: المصدر نفسه: 117- 118.

[xv]- المصدر نفسه: 27.

[xvi]- المصدر نفسه:117- 118.

[xvii]- ينظر: المصدر نفسه: 38.

[xviii]- **مصير الضعفاء، الأعمال الكاملة لمحمود أحمد السيد، محمود أحمد السيد**، دار الحرية للطباعة- بغداد، ط1، 1978**:** 98.

[xix]- ينظر: المصدر نفسه: 90.

[xx]- المصدر نفسه: 98.

[xxi]- المصدر نفسه: 98.

[xxii]- المصدر نفسه: 101.

[xxiii]- ينظر: **الأمّة والرواية منذ بداية الرواية الانكليزية حتى الوقت الحاضر**، باترك بارندر، المركز القومي للترجمة- القاهرة، ط1، 2009: 33.

[xxiv]- **الرواية والأمّة والوطن**، من كتاب **(مئة عام من السرد مئة عام من الدولة)** مجموعة من المؤلفين، مجلة الأقلام- دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، 2021: 69.

[xxv]- **اليد والأرض والماء،** ذو النون أيوب، مطبعة شفيق- بغداد، ط2 1970: 7.
[xxvi]- المصدر نفسه: 149.
[xxvii]- **الاتجاهات الفكرية في الرواية العراقية 1948- 1980،** صبا علي كريم المعموري، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ط1 2019: 28.
[xxviii]- **اليد والأرض والماء**: 51.
[xxix]- المصدر نفسه: 63.
[xxx]- المصدر نفسه: 132.
[xxxi]- المصدر نفسه: 84.
[xxxii]-المصدر نفسه: 85.
[xxxiii]- ينظر: **الأمّة والرواية منذ بداية الرواية الانكليزية حتى الوقت الحاضر**: 90.
[xxxiv]- **جلال خالد، الأعمال الكاملة لمحمود أحمد السيد،** محمود أحمد السيد، دار الحرية للطباعة- بغداد، ط1، 1978**:** 282.
[xxxv]-المصدر نفسه: 278.
[xxxvi]- المصدر نفسه:287.
[xxxvii]- المصدر نفسه: 284.
[xxxviii]- ينظر: **الرواية التاريخية،** جورج لوكاش، ترجمة: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، ط2، 1986: 37.
[xxxix]- **الرواية والأمّة والوطن**: 74.
[xl]- ينظر: **نشأة القصة وتطورها في العراق 1908- 1938،** عبد الإله أحمد، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، ط3, 2001: 199.
[xli]- ينظر: **الفن القصصي في الأدب العراقي الحديث،** ج1: الرواية العربية في العراق، عمر الطالب، منشورات مكتبة الاندلس- بغداد، ط1، 1971: 93.
[xlii]- ينظر: المصدر نفسه: 93.

المصادر والمراجع:

- الاتجاهات الفكرية في الرواية العراقية 1948- 1980، صبا علي كريم المعموري، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ط1 2019.
- الأمّة والرواية منذ بداية الرواية الانكليزية حتى الوقت الحاضر، باترك بارندر، المركز القومي للترجمة- القاهرة، ط1، 2009.
- جلال خالد، الأعمال الكاملة لمحمود أحمد السيد، محمود أحمد السيد، دار الحرية للطباعة- بغداد، ط1، 1978.
- الحبكة، ألبزابث ديل، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، دار الرشيد للنشر- بغداد، ط1 1981.
- الرواية الإيقاظية، سليمان فيضي، دار قناديل- بغداد، ط1، 2019.
- الرواية التاريخية، جورج لوكاش، ترجمة: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، ط2، 1986.
- الرواية والأمّة والوطن، من كتاب **(مئة عام من السرد مئة عام من الدولة)** مجموعة من المؤلفين، مجلة الأقلام- دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، 2021.

- الزمان والسرد، بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، ج1، دار الكتاب الجديد- بيروت، ط1، 2006.
- سرديات الأمّة: تخييل التاريخ وثقافة الذاكرة في الرواية المغربية المعاصرة، إدريس خضراوي، أفريقيا الشرق- المغرب، ط1 2017.
- فن الشعر، أرسطو، ترجمة وتعليق: إبراهيم حمادة، مركز الشارقة للإبداع الفكري- الامارات، د. ط، د.ت.
- الفن القصصي في الأدب العراقي الحديث، ج1: الرواية العربية في العراق، عمر الطالب، منشورات مكتبة الاندلس- بغداد، ط1، 1971.
- في غمرة النضال: مذكرات سليمان فيضي، سليمان فيضي، شركة التجارة والطباعة المحدودة- بغداد، 1952.
- قاموس السرديات، جيرالد برنس، ترجمة: السيد إمام، ميريت للنشر- القاهرة، ط1، 2003.
- مصير الضعفاء، الأعمال الكاملة لمحمود أحمد السيد، محمود أحمد السيد، دار الحرية للطباعة- بغداد، ط1، 1978.
- مورفولوجيا الحكاية الخرافية، فلاديمير بروب، ترجمة: أبو بكر أحمد باقادار وأحمد عبد الرحيم نصر، النادي، دار البلاد- جدة، ط1, 1989.
- نشأة القصة وتطورها في العراق 1908- 1938، عبد الإله أحمد، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، ط3, 2001.
- الهُوية والذاكرة الجمعية: إعادة إنتاج الأدب العربيّ قبل الإسلام، أيام العرب أنموذجا، د. عبد الستار جبر، تقديم: نادر كاظم، المدار الإسلامي- بيروت، ط1، 2019.
- اليد والأرض والماء، ذو النون أيوب، مطبعة شفيق- بغداد، ط2 1970.